حضرة رؤوف أفنـدي

أقصوصة مصرية

تعمد الدكتور احمد سامي أن يصل إلى الوزارة حوالي الساعة التاسـعة، أو حـين ينتهي كثير من الموظفين من تناول الإفطار، ويأخذون في تصفح الجرائد، كي يجد فسحة من الوقت للتحدث في المسألة التي تشغله وتمه، وقصد إلى قلم العلاوات مسترشدا بمـن صادفه من السعاة، واجتاز بابه في خطى ثقيلة وألقى نظرة شاملة على المكاتب والموظفين، ثم اقترب من أدنى المكاتب إلى الداخل وحيا الموظف الجالس إليه بلطف وأدب، وسـأله بصوت خفيض: " أين رؤوف أفندي عبد القادر من فضلك ؟" فأومأ الرجل إلى مكتـب خال يتوسط المكاتب ورد عليه قائلا : " هذا مكتبه ، وقد اعتذر من التـأخير ، سـاعة فتفضل بانتظاره " . فشكره الدكتور ودلف إلى المكتب وجلس على كرسي قريب منـه ينتظر صاحبه الذي جاء خصيصا لمقابلته، بعد أن تجشم متاعب السفر إليه من الزقـازيق مكان عمله، وكانت مسألته على وجه التحقيق علاوة استحقها عنـد تطبيـق الكـادر الجديد، وصرفت إليه شهرا، ثم أوقف صرفها بحجة انه تبين بعد ذلك أن شروط استحقاقه لها لم تكن كاملة، ولم يفكر الدكتور في معارضة قرار الـوزارة، إلا أن صـديقا لـه – ولرؤوف أفندي أيضاً – ممن يلمون بقواعد العلاوات، اعتقد أن حرمانه من العـلاوة في غير محله، فلعب الأمل في قلب الدكتور، وارتأى أن يكتب للوزارة شكوى خاصة، ولكن الصديق أشار عليه بمقابلة رؤوف أفندي رئيس قلم العلاوات الذي يثق فيه ثقة عميـاء، وقد قال له عنه وهو ما يزال يذكره ويستعيده: " رؤوف أفندي موظف كفء وحجة في العلاوات وقواعدها، لا تفوته منها كبيرة ولا صغيرة، وقد تمرس بعمله عهـداً طـويلاً، وقضى في الدرجة الثامنة خمسة عشر عاما قبل أن يرقى إلى الدرجـة الـسابعة، ولهـدير المستخدمين فيه ثقة عمياء، فهو مشيره ويده اليمنى على ما بينهما من فارق في الدرجات، ولكن ينبغي أن تحسن فهمه لتظفر بصداقته ومعونته، وإلا انقلب لـك عـدوا يقـيم في طريقك العراقيل ويعقد لك الأمور بالأساليب الحكومية المعروفة... فاعلم انه رجل كـثير الاعتداد بنفسه، شديد الغرور، تياه فخور، حساس الكرامة إلى حد المرض، كمـا يقـع لكثيرين ممن يدارون في اعماق سريرتم نقصا أو عجزاً، ونقصه مركـز في تعلمـه الأولى

ودرجته البسيطة، ولذلك تجده كثير الوساوس، فيوجس من أطباء الوزارة خيفة ويـضمر لهم الضغينة، ويتهمهم بالغرور والعجرفة وسوء الأدب، ويقول عنهم أنهم يعتقدون خطـأ وباطلاً أن الموظف الفني من طينة غير طينة الموظف الكتابي وجبلة غير جبلتـه، ولـذلك يستبيحون احتقاره والاستعلاء عليه، وطبيعي أن يسفه هذا الرأي ويقدح فيه، وكثيرا مـا يؤكد أن الموظف الكتابي رجل شهيد مهضوم الحق وان عمله اشق في الواقع مـن عمـل الأطباء... فحاذر أن يستشعر في حديثك أو مظهرك الكبرياء أو الجفاء، واعتقـد انـه لا تنقصك اللباقة ولا الحنكة... على أن الآمر يستوجب أكثر من اللباقة والحنكة... فرؤوف أفندي – على صلفه وكبريائه – مغرم بالتدخين، ولكنه لا يبتاع السجائر إلا فيما نـدر، وهو في مواسم العلاوات لا يجد حاجة إلى ابتياعها إطلاقاً... وغرامه بالحاتي لا يقل عـن غرامه بالسجائر، وإنفاقه عليه دون إنفاقه على السجائر... هذا غير الحلـوان والهـدايا. ولأضرب لك مثلا بعصاه وساعته ومعطفه، فجميعها هدايا تقبلها في مختلف المناسـبات. ولا بأس أن تعلم بأنه أب لستة أطفال أو سبعة، لتسترشد بذلك في اختيار الهدايا، فاذكر هذا وافهمه جيدا... "

وقد ذكره وفهمه وتوثب لاحتمالاته، ووازن بين ما يحتمل أن يبذله وما عـسى أن يربحه، فوجد انه الرابح على اى حال، لان العلاوة التي يطمـع في اسـترددها جنيهـان ونصف، وهو مبلغ لا يستهان به، ولبث ينتظر متصبرا وهو يقول لنفسه: إن مقابلة وزير لا تكلف مريدها هذه الواجبات الأدبية والمادية. ثم تنبه على وقع أقدام ثقيلة آتيـة مـن ناحية الباب، فاتجه بصره نحو القادم فرأى رجلا في نحو الأربعين من عمره مفتول الشارب على الطريقة الغليومية، يرتدى معطفا اسود ثمينا، ويهز في يمناه عصا غليظة ذات مقـبض عاجي، مقبلا نحو المكتب الذي جلس إلى جانبه في خطى وئيدة وخيلاء، مقطب الجـبين منتفخ الأوداج، وقد حيا الموظفين دون أن يعير احدهم إلتفاتة أو تلين أساريره، فلم يؤخذ الدكتور بمظهره وعلى العكس وجد ابتسامة ساخرة تحاول الإفلات من سريرته إلى شفتيه، ولكنه تمالك عواطفه ونهض قائما تحية للقادم العظيم، فألقى عليه هذا نظرة عابرة، ومضى يخلع معطفه متمهلا وعلقه بالمشجب كما علق عصاه، وكأنه لم يره أو يحس له وجـودا، فاستاء الدكتور وأوشك أن يستولى عليه الحنق – ولكنه لم يغفل عن غايته التي ينـشدها،

فلم يبد على وجهه أدنى تغيير، ودس يده في جيبه فابرز بطاقة صديقة وقدمها للموظـف الخطير، فتناولها الرجل وهو يلقى عليه نظرة لاح بـا شيء من الاهتمام، كأنمـا يـدرك وجوده لأول مرة، ثم نظر في البطاقة وقرأ توصية الصديق فانبسطت أساريره قليلا ومـد يده للدكتور فتصافحا، وقال له مشيرا إلى الكرسي: " تفضل يا دكتـور بـالجلوس ". فشكر الدكتور وجلس دون أن يلاحظ أن صوت الرجل علا وهو ينطق بلفظ " دكتور " ليعلن شخصية ضيفه للموظفين، ثم جلس رؤوف أفندي كذلك وألقى على الموظفين نظرة كأنما ينظر إلى أشياء تملكها يمينه، وإستنظر الدكتور حين ينظر في الأعمال، ودعـا احـد الموظفين فجاءه يسعى بالأوراق المعدة للعرض، وجعل الرجل يطالعها على مهل ويبـدى ملاحظاته الشفوية، طوراً منتقداً وطوراً معنفاً، ثم يوقع عليها بإمضائه، وتتابع على مكتبه الموظفون فلم يعف واحداً منهم من ملاحظة يغص بـا، والدكتور يراقبه عـن كثـب، لا تفوته حركة من حركاته ولا قول من أقواله، وقد أيقن بأنه مريض بمرض العظمـة وانـه يصلح بغير شك لان يكون نادرة من نوادر المزاح والعبث. وانتهى الرجل من المراجعـة ثم التفت إلى الدكتور وهو يقول: " فرغت لك الآن... فهات ما عندك يـا دكتـور " وتعمد الدكتور في هذه اللحظة أن يبرز علبة السجائر المذهبة وقدم له سيجارا فألقى على العلبة نظرة خاطفة وتناول السيجار شاكرا، وتناول الدكتور أخرى، ثم تكلم في الموضوع الذي جاء من اجله، فذكر كيف تقررت له العلاوة وكيف حرم منها، وشرح بإسـهاب رأي صديقه في خطأ إجراء الحرمان، وأصغى إليه رؤوف أفندي بانتباه واهتمام يعـادلان لذة السيجار النفيسة، ووجه إليه بعض أسئلة تتعلق بموعد آخر علاوة صرفت إليه وتاريخ دخوله الخدمة، ثم صمت صمتا عميقا، وضيق عينيه وجعل يهز رأسه هزات بطيئة تـدل على الأناة والتفكير، والدكتور لا يحول عنه عينيه منتظرا الكلمة الفاصـلة، وقـد أمحـى شعوره بالسخرية، وحل محله اهتمام جدي مشوب بالقلق، ونفذ صبره فتسائل قائلا: ماذا ترى يا رؤوف بك ؟ " فالتفت رؤوف بك إليه وقد رفع حاجبيه الكثيفين وقـال: " يـا دكتور أحمد... إني عظيم الأمل في أن أرد إليك هذه العلاوة " فلاح الارتياح في وجـه الدكتور وقال بسرور: " حقا ؟ ... أريد رأيا قاطعا " فقال رؤوف أفندي بثقة: " الأمـر يتوقف على كيفية كتابة المذكرة، واعدك بأني ادرس حالتك بعناية تامة " فابتسم الدكتور

وقال برجاء: " خير البر عاجله " ولكن الرجل أبدى حركة تدل على الأسف وقال:" إنني الآن مشغول جدا يا دكتور، ولكني سأفرغ لك غدا أو بعد غد " فأحس الشاب خيبـة وقال لنفسه إن الثعلب يطمع في مزيد من الرجاء والجزاء، فكيف اغزوه ؟ ولكنه لم ير بدا من شكره فشكره وما يزال يفكر في حل موفق ، وكان رؤوف أفندي يهيئ له الفرصـة وهو لا يدرى ، كان يفكر في أمر ذي بال يهمه فقال للدكتور : " لا تؤاخذني يا دكتور اذا انتهزت فرصة وجودك لأنتفع بعلمك "، فقال الدكتور بسرور صادق : " أنى رهـن إشارتك "، فاستطرد الرجل قائلا: " لي ابن في العاشرة ، ورم ما تحت أذنيه منذ يـومين وارتفعت حرارته، فما ترى في ذلك ؟ " وكان الدكتور يتوقع خدمة اخطر من ذلك فسر سرورا مضاعفا وقال للرجل: " يحسن بي أن افحصه بنفسي يا أستاذ رؤوف، فـد عـنى أصحبك إلى البيت بعد انصراف الدواوين ". وشكره الرجل ثم تصافحا، وغادر الدكتور القلم على أن يعود إليه في الموعد المضروب...

وفى تمام الساعة الثانية عاد الدكتور إلى الوزارة وغادراها معا، وكان رؤوف أفندي يمشى مشية الخيلاء وفى فمه سيجار من علبة الدكتور المذهبة، وقد اجمع الـدكتور علـى أمر، فلما بلغا ميدان الأزهار قال الشاب وكأن الفكرة خطرت له عرضا: يا رؤوف بك أنى لم أتناول طعام الغذاء بعد، ولى زمن طويل لم أعرج على الحـاتي، فهـلا تفـضلت بصحبتي إليه ؟ " فلبث رؤوف أفندي كالمتردد لحظة ثم ابرز ساعته ونظر فيها – وهـى حركة لا معنى لها البتة – ثم قال مبتسما ولم يكن يبتسم إلا نادرا: " لا يأبى الكرامـة إلا لئيم " ومضيا معا إلى الحاتي وجلسا متقابلين وطلب الدكتور رطلين من الكباب، وفى أثناء تناولهما الطعام جعل رؤوف أفندي يأنس إلى صاحبه ويألفه، وما عتم أن زايله الـصلف والجفاء، فمزق قناع التكلف وانبسطت أساريره، وبدا إنسانا لطيفا كثير الكلام ، وجعل الدكتور يحادثه ويعجب لأمره، وقد بدا له أن يسأله عما يحمله على اتخاذ طبيعـة غـير طبيعته، ولكنه تردد ثم عدل عما بدا له ، وقال لنفسه ما من شك في انه يحكـم القلـم بمظهره الكاذب ، على أن الأمر يعدو هذا ، فالخيلاء غالبا ما تتخذ قناعا لنقص أو هوان ، ولعلهما اجتمعا معا لرؤوف أفندي، ولكن ما لي أنا ولهذا ؟ فلأعمل بالمثل القائـل (إن كان لك عند الكلب حاجة فقل له يا سيدي...)

وغادرا الحاتي بعد أن امتلأا، واستقلا الترام إلى السيدة زينب، وترك الدكتور قيـادة لرؤوف أفندي، فمضى به من شارع إلى شارع حتى انتهيا إلى عطفة دعبس، وهى عطفة ضيقة حقيرة تتراكم القاذورات في جوانبها وتغرق مساكنها في البؤس والفقر، ويعتورهـا التداعي، فلم يصدق الدكتور أن هذا الموظف الفخم يقيم في هذه العطفة البائسة، ولحظة بطرف عينيه فقرأ في وجهه الارتباك، فأدرك حرجه وفطن إلى بواعثه، والتفت الرجل إليه وقال بصوت كالمعتذر: " انك تشرف دارا ليست قد المقام، ولكن ما عـسى أن يـصنع موظف مثلي أب لستة، منهم واحد في الثانوي واثنان في الابتدائي ؟ ولقد أتى على زمان كنت اقطن في عمارة حسن الفضل بشارع جعفر ، ولكنه الواجب كما ترى ...

فربت الشاب على كتفه وأثنى على همته وقال له: إن الأبوة البارة فضيلة قد لا يحظى بمثلها سكان الزمالك وجاردن سيتى، وبدأ يشعر بعطف نحو الرجل الذي كان يسخر منه ويتهكم به، ثم دخلا بيتا متداعيا وولجا باب شقة في الدور الارضي، وادخله حجـرة إلى يمين الداخل، استنتج أنا حجرة الاستقبال، لم ير أبأس منها إلا في أكواخ الفلاحين بقرى الزقازيق، فرشت بحصير وأثثت بكنبتين متقابلتين، ولكن الظاهر أنا كانت تستعمل للنوم أحيانا كما استدل على ذلك من تراكم البق في شقوق جدرانا، فتقززت نفسه، ولبـث متململا، ولكن لم يطل انتظاره، فجاء الرجل يقود بيده غلاما متـورم الوجـه ملتـهب الجبين، واستقبلهما الشاب مبتسما واجلس الغلام على الكنبة واقبل عليه يفحصه بعنايـة، وأدرك انه مصاب بالتهاب الغدة النكفية، فكتب له ووشته الدواء وأوصاه بحجـزه عـن أخوته لمنع العدوى، فشكره الرجل وخرج معه يوصله متأخرا عنه في احتـرام وإجـلال، وأبى إلا أن يرافقه إلى الطريق العام، وسار إلى جانبه صامتا متفكرا ثم قال بصوت حزين: " يأبى الكدر أن يغفل عنى... وقد حسبت نفسي بالأمس اسعد الناس حين وعدني كـبير من رجال المعارف بالسعي لإعفاء ابني من المصروفات المدرسية، ولكني علمت الآن فقط أن الناظر أبى أن يقبله حتى يؤدى القسط الأول، وهو لابد من تأديته ولو أعفى فيما بعـد من بقية المصروفات "... وأدرك الدكتور من مضاضة لهجته انه لا يملك مليما من القسط المطلوب فتمتم قائلا بتأثر: " أعانك الله يا سيدي " ولكنه على تأثره وعطفه امسك عـن التبسط في الحديث خشية التورط، واختلس منه نظرة فطالع في عينيه نظرة منكسرة حائرة

وقد اكفهر وجهه ولاح الكدر والغم على جبينه وهمي الحزن على نفسه، وكأنه تناسـى حرصه المعهود فقال بصوت كالأنين: " الأبناء... الأبناء... إنم سـعادتنا وشـقاؤنا... لعلك لا تعلم مقدار السعادة التي تمنحها ابتسامة طفل، ولم تتذوق بعد الموسيقى الإلهيـة المودعة لفظة " بابا " ولكن ما طعم الحياة وطيبها اذا أن بذا اللفظ متألما من ورم وجهه ؟ وما لذة العيش اذا هتف به الآخر شاكيا حرمانه من الدراسة ؟ " وضغط الدكتور علـى يده، ولم يجد ما يقوله، فلاذ بالصمت ولم ينبس الرجل بكلمة حتى بلغا الطريق فتصافحا وافترقا. وتمهل الدكتور قليلا وجعل يتتبع الرجل بناظريه، فرآه يتعثر في خطاه الثقيلة وقد خفض رأسه من الغم والكدر، ورجع رؤوف أفندي إلى بيته وكانت تزايله فيه الكبريـاء فيبدو وديعا منكسرا ويفيض قلبه بالعطف والألم، وقد توفرت له ذاك اليوم دواعيه فخلع ملابسه واستلقى على الفراش ينشد الراحة بعد طول العناء، وجهد أن يطرد عن نفـسه البلبال، ولكنه استعصى عليه آن ينعم بالصفاء، ومضى يحدث نفسه قائلا: " ما الحيلة الآن ؟!... كيف احصل على القسط الأول وما املك ثمن الروشتة ؟... وهذا محمد مـريض يتأذى، وذاك على محروم من الدراسة... رباه لم يبق من أثاثنا ما يستحق أن اعرضه للبيع، فماذا أنا فاعل ؟!".

وأغمض جفينه ورأسه ما يزال مستعرا بالفكر، ثم أسنده إلى كفه، وقد تدلى شاربه العظيم وتشعث، ولكنه لم ينشط إلى فتله بالعناية والأناة المعهودتين اللتين يعرفهما عنه موظفو قلم العلاوات....